قوله : (ولاشيء مثله) .

ش : اتفق أهل السنة على أن ا ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظ مجملا يراد به المعنى الصحيح وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته : { ليس كمثله شيء } رد على الممثلة المشبهة { وهو السميع البصير } رد على النفاة المعطلة فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم ويراد به أنه لا يثبت شي من الصفات فلا يقال : [له] قدرة ولا علم ولا حياة لأن العبد موصوف بهذه الصفات ! ولازم هذا القول أنه لا يقال له : حي عليم قدير لأن العبد يسمى بهذه الأسماء وكذلك كلامه وسمعه وبصره [وإرادته] وغير ذلك وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود عليم قدير حي والمخلوق يقال له : موجود حي عليم قدير ولا يقال : هذا تشبيه يجب نفيه وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل ولا يخالف فيه عاقل فإن ا سمى نفسه بأسماء وسمى بعض عباده بها وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى ببعضها صفات خلقه وليس المسمى كالمسمي فسمى نفسه : حيا عليما قديرا رؤوفا رحيما عزيزا حكيما سميعا بصيرا ملكا مؤمنا جبارا متكبرا وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء فقال : { يخرج الحي من الميت } { وبشروه بغلام عليم } { فبشرناه بغلام حليم } { بالمؤمنين رؤوف رحيم } { فجعلناه سميعا بصيرا } { قالت امرأة العزيز } { وكان وراءهم ملك } { أفمن كان مؤمنا } { كذلك يطبع ا على كل قلب متكبر جبار } ومعلوم أنه لا يماثل الحي الحي ولا العليم العليم ولا العزيز العزيز وكذلك سائر الأسماء وقال تعالى : { ولا يحيطون بشيء من علمه } { أنزله بعلمه } { وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه } { إن ا هو الرزاق ذو القوة المتين } { أولم يروا أن ا الذي خلقهم هو أشد منهم قوة } [وعن جابر Bه قال : كان رسول ا A يعلمنا الإستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا اقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به قال :

ويسمي حاجته] رواه البخاري [وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه النسائي وغيره عن النبي A أنه كان يدعو بهذا الدعاء : اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحييني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى وأسألك القصد في الغنى والفقر وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضى بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين] فقد سمى ا ورسوله صفات ا علما وقدرة وقوة وقال تعالى : { ثم جعل من بعد ضعف قوة } { وإنه لذو علم لما علمناه } ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم ولا القوة كالقوة ونظائر هذا كثيرة وهذا لازم لجميع العقلاء فإن من نفي صفة من صفاته التي وصف ا بها نفسه كالرضى والغضب والحب والبغض ونحو ذلك ورغم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم ! قيل له : فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين فقل فيما نفيته وأثبته ا ورسوله مثل قولك فيما أثبته إذ لا فرق بينهما .

فإن قال : أنا لا أثبت شيئا من الصفات ! قيل له : فأنت تثبت له الأسماء الحسنى مثل : عليم حي قادر والعبد يسمى بهذه الأسماء وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلا لما يثبت للعبد فقل في صفاته نظير قولك في مسمى أسمائه .

فإن قال : وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى بل أقول هي مجاز وهي أسماء لبعض مبتدعاته كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة ! .

قيل له : فلا بد أن تعتقد أنه موجود وحق قائم بنفسه والجسم موجود قائم بنفسه وليس هو مماثلا له .

فإن قال : أنا لا أثبت شيئا بل أنكر وجود الواجب .

قيل له : معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه وإما غير واجب بنفسه وإما قديم أزلي وإما حادث كائن بعد أن لم يكن وإما مخلوق مفتقر الى خالق وإما غير مخلوق ولا مفتقر الى خالق وإما فقير إلى ما سواه وإما غني عما سواه وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه والحادث لا يكون إلا بقديم والمخلوق لا يكون إلا بخالق والفقير لا يكون إلا بغني عنه فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالق [غني] عما سواه وما سواه بخلاف ذلك وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن والحادث لا يكون واجبا بنفسه ولا قديما أزليا ولا خالقا لما سواه ولا غنيا عما سواه فثبت بالضرورة وجود موجودين : أحدهما واجب والآخر ممكن أحدهما قديم والآخر حادث أحدهما غني والآخر فقير أحدهما خالق والآخر مخلوق وهما متفقان في كون كل منهما شيئا موجودا

ثابتا ومن المعلوم أيضا أن أحدهما ليس مماثلا للآخر في حقيقته إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع وأحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه والآخر لا يجب قدمه ولا هو موجود بنفسه وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق وأحدهما غني عما سواه والآخر فقير .

فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم موجودا بنفسه غير موجود بنفسه خالقا ليس بخالق غنيا غير غني فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثلهما فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع .

فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلا قائلا بالباطل ومن جعلهما متماثلين كان مشبها قائلا بالباطل وا أعلم وذلك لأنهما وإن اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه فالله [تعالى] مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته والعبد لا يشركه في شيء من ذلك والعبد أيضا مختص بوجوده وعلمه وقدرته وا تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه .

وإذا اتفقا في مسمى الوجود والعلم والقدرة فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان والموجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه .

وهذا موضع اضطراب فيه كثير من النظار حيث توهموا أن الإتفاق في مسمى هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد .

وطائفة ظنت أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك اللفظي وكابروا عقولهم فإن هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم كما يقال : الموجود ينقسم إلى واجب وممكن وقديم وحادث ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام واللفظ المشترك كلفظ المشتري الواقع على المبتاع والكوكب لا ينقسم معناه ولكن يقال : لفظ المشتري يقال على كذا [أو على كذا] وأمثال هذه المقالات التي قد بسط الكلام عليها في موضعه .

وأصل الخطأ والغلط : توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المعين وهذا المعين وليس كذلك فان ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقا كليا [بل] لا يوجد إلا معينا مختصا وهذه الأسماء إذا سمي ا بها كان مسماها معينا مختصا به فإذا سمي بها العبد كان مسماها مختصا به فوجود ا وحياته لا يشاركه فيها غيره بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه فيه غيره فكيف بوجود الخالق ؟ ألا ترى أنك تقول : هذا هو ذاك فالمشار إليه واحد لكن بوجهين مختلفين .

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا وأن المعطلة أخذوا نفي المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا وأن كتاب ا دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه .

فالنفاة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ولكن أساؤوا في نفي المعاني الثابتة ﷲ تعالى في نفس الأمر .

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن أساؤوا بزيادة التشبيه .

واعلم أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عنها أو ما يناسب عينها ويكون بينها قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى وإلا فلا يمكن تفهيم المخاطبين بدون هذا قط حتى في أول تعليم معاني الكلام بتعليم معاني الألفاظ المفرده مثل تربية الصبي الذي يعلم البيان واللغة ينطق له باللفظ المفرد ويشار له الى معناه إن كان مشهودا بالإحساس الظاهر أو الباطن فيقال له : لبن خبز أم أب سماء أرض شمس قمر ماء ويشار له مع العبارة الى كل مسمى من هذه المسميات وإلا لم يفهم معنى اللفظ ومراد الناطق به وليس أحد من بني آدم يستغني عن التعليم السمعي كيف وآدم أبو البشر وأول ما علمه اﷲ تعالى أصول الأدلة السمعية وهي الأسماء كلها وكلمه وعلمه بخطاب الوحي ما لم يعلمه بمجرد العقل .

فدلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالته على ما عناه المتكلم وأراده وإرادته وعنايته في قلبه فلا يعرف باللفظ ابتداء ولكن [لا] يعرف المعنى بغير اللفظ حتى يعلم أولا أن هذا المعنى المراد هو الذي يراد بذلك اللفظ ويعني به فإذا عرف ذلك ثم سمع اللفظ مرة ثانية عرف المعنى المراد بلا إشارة إليه وإن كانت الإشارة الى ما يحس بالباطن مثل الجوع والشبع والري والعطش والحزن والفرح فإنه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه فإذا وجده أشير له إليه وعرف أن اسمه كذا والإشارة تارة تكون إلى جوع نفسه أو عطش نفسه مثل أن يراه أنه قد جاع فيقول له : جعت أنت جائع فيسمع اللفظ ويعلم ما عينه بالإشارة أو ما يجري مجراها من القرائن التي تعين المراد مثل نظر أمه إليه في حال جوعه وإدراكه بنظرها أو نحوه جنها تعني جوعه أو يسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره .

اذا عرف ذلك فالمخاطب المتكلم إذا أراد بيان معان فلا يخلو إما أن يكون مما أدركها المخاطب المستمع بإحساسه وشهوده أو بمعقوله وإما أن لا يكون كذلك فإن كانت من القسمين الأولين لم يحتج إلا إلى معرفة اللغة بأن يكون قد عرف معاني الألفاظ المفردة ومعنى التركيب فاذا قيل له بعد ذلك : { ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين } أو قيل له : { واﷲ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون } ونحو ذلك فهم المخاطب بما أدركه بحسه وإن كانت المعاني التي يراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشهده بعينه ولا بحيث صار له معقول كلي يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الألفاظ بل هي مما [لا] يدركه بشيء من حواسه الباطنة والظاهرة فلا بد في تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التي شاهدها من التشابه والتناسب وكلما كان التمثيل أقوى كان البيان أحسن والفهم أكمل .

فالرسول صلوات ا وسلامه عليه لما بين لنا أمورا لم تكن معروفة قبل ذلك وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها أتى بألفاظ تناسب معانيها تلك المعاني وجعلها أسماء لها فيكون بينها قدر مشترك كالصلاة والزكاة والصوم والإيمان والكفر وكذلك لما أخبرنا بأمور تتعلق بالإيمان با وباليوم الآخر وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها أخذ من اللغة الألفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني الغيبية والمعاني الشهودية التي كانوا يعرفونها وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد كتعليم الصبي كما قال ربيعة ابن أبي عبد الرحمن : الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم .

وأما ما يخبر به الرسول من الأمور الغائبة فقد يكون مما أدركوا نظيره بحسهم وعقلهم كإخبارهم بأن الريح قد أهلكت عادا فإن عادا من جنسهم والريح من جنس ريحهم وإن كانت أشد وكذلك غرق فرعون في البحر وكذا بقية الأخبار عن الأمم الماضية ولهذا كان الإخبار بذلك فيه عبرة لنا كما قال تعالى : { لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب } وقد يكون الذي يخبر به الرسول ما لم يدركوا مثله الموافق له في الحقيقة من كل وجه لكن في مفرداته ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة با واليوم الآخر فلا بد أن يعلموا معنى مشتركا وشبها بين مفردات تلك الألفاظ وبين مفردات ما علموه في الدنيا بحسهم وعقلهم فإذا كان ذلك المعنى الذي في الدنيا لم يشهدوه بعد ويريد أن يجعلهم يشهدونه مشاهدة كامله ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب أشهدهم إياه وأشار لهم إليه وفعل قولا يكون حكاية له وشبها به يعلم المستعمون أن معرفتهم بالحقائق المشهودة هي الطريق التي يعرفون بها الأمور الغائبة .

فينبغي أن يعرف هذه الدرجات : أولها : إدراك الإنسان المعاني الحسية المشاهدة وثانيها : عقله لمعانيها الكلية وثالثها : تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية فهذه المراتب الثلاث لا بد منها في كل خطاب فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة فلا بد من تعريفنا المعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والإشتباه الذي بينهما وذلك بتعريفنا الأمور المشهودة ثم إن كانت مثلها لم يحتج إلى ذكر الفارق كما تقدم في قصص الأمم وإن لم يكن مثلها بين ذلك بذكر الفارق بأن يقال : ليس ذلك مثل هذا ونحو ذلك وإذا تقرر انتفاء المماثلة كانت الإضافة وحدها كافية في بيان الفارق وانتفاء التساوي لا يمنع وجود القدر المشترك الذي هو مدلول اللفظ المشترك وبه صرنا نفهم الأمور الغائبة ولولا المعنى المشترك ما أمكن ذلك قط